

الإسلام والعصر *

للأستاذ حسن عبد الله القرشي

جاء الإسلام داعياً للدين القيم
الحنيف دين الخير والاستقامة والعمو
والتسامح وحفظ الجوار ، ورعاية الرحم
وتثبيت الصلات بخالق الكون وموجد
الأمم من العدم ، فأعلا من مركز الإنسان
وشجب الظلم والغدر ، والعدوان ، وأحيا
في النفوس رواكد الهمم ، بالنصفة في
الآخرة إن فات الإنصاف الإنسان في الدنيا
، وتوعد الظالمين والجحدة والكاذبين
والبغاة بالعذاب الأليم (يوم لا تملك نفس
لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ويوم يعرض
الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع
الرسول سبيلاً) .

وحين انبثق فجر الإسلام بنزول
الوحي على سيد الخلق أجمعين ، اطمأن

ليس ثمة عصر من العصور محتاج
إلى تعاليم الإسلام وإلى السير على هداه
وتطبيق مناهجه كعصرنا الراهن الذي
استشرى فيه الطغيان ، وانهارت قيم
الإنسان وأصبح منطق القوة هو عنوان
العصر .

وقد جاء الإسلام والناس في ضلالة ،
وعماية ، وجهالة وغواية : يأكل القوى
الضعيف ، ويتسلط الغنى على الفقير ،
ليس هناك من حق لسائل أو محروم ،
والقوم سادرون في عبادة الأصنام ،
وتقديس الأوثان ، والشجاع فيهم هو ناهب
غيره وغازي جاره ، وأكل مال اليتيم ظلماً
وعدواناً . . فإذا خيف الفقر وثد الذكور-،
وإذا خيف العار وئدت الإناث ،

(*) ألقى هذا البحث في الجلسة السادسة ، من جلسات المؤتمر ، يوم الاثنين ٢٧ من شوال ١٤١٣ هـ الموافق ١٩
من أبريل ١٩٩٣ .

نفوس هداها الله ، واستكبر أناسٌ
معتصمين بالشكّ والجدل العقيم ، وهنا
نحن أولاء نعانى من أمثال هؤلاء - الذين

استحوذَ عليهم الشيطانُ فأضلَّهم
وأعمى أبصارهم عن نور الحقِّ وعن
الرشاد فهم يجادلون في الله ، ومماحكونَ
في الدين ، ويتشدقون في التدين ، وهم
في ضلالتهم يتخبطون .

فالإسلام شعلةٌ لاتنطفئ ومنازةٌ
لاتنحني . أتى سلاماً وبرداً للبشرية جمعاء ،
وهبطت تعاليمه على خير الرُّسل وصفوةِ
الخلق نبيُّ الإنسانية كلّها ؛ فإذا هي مصفاة
منتقاة صالحة لكل زمان ومكان ، وقد كان
رجالاً الإسلام مُثلاً علياً ، ونماذجَ
ساميةً فهماً للدين ، وتفقهاً فيه ، وعكوفاً
على حلِّ ما يطرأ من مُعضلاتٍ ومشكلاتٍ
ومسارعةٍ إلى حملِ راياتِ الجهاد في سبيلِ
الله ، مادعت إلى ذلك الدواعى .

وبرز من التابعين الأعلام ، أئمة الفقه

الأربعة : الأمام ؛ مالكُ بن أنس ،
والشافعيُّ محمد بن إدريس ، وأبو حنيفة
النعمان وأحمدُ بن حنبل ، وكثير من
مريديهم ، وتلامذتهم .

كما خُدِمت السنَّة بالأفذاذ وأصحابِ
الكتب الستة وغيرهم ؛ الأمر الذي أدَّى
إلى حفظها وصيانتها .

وسار الإسلام على نسقٍ علويٍّ مستمدٍ
من كتاب الله وسنِّه ورسوله ، وما اجتهد
به الاعلامُ من رجالاته الكبار .

وقد أتى العصرُ الراهن بمشكلاتٍ
وتحدياتٍ افتقدنا لها رجلُ الدين ، الواسعُ
الأفق العصريُّ الثقافة ، الذي يستطيع أن
يسيرَ على هدىِ الشعارِ المحمديِّ (أنتم
أعلم بأمور دنياكم) ، وإن كان هناك
فريقٌ ينظرُ إلى مثلِ هذا الرجل - إذا وُجد
- نظرةً شكِّ وريبةٍ ويضعه موضعَ اتهام ،
إذا حاول أن يجتهدَ ويستنبطَ بما ينفع
المسلمين مع أن باب الاجتهاد مفتوح غيرَ
موصود ، ومع أن مصادرَ البحث العلميِّ

الدينى قد توافرت بصورة لم تُتَّح في
العهود الأولى . . . وبذلك تأخر ركبُ
الدين وتخلفت مسيرة الإسلام ، وأصبح
القيّمون عليه هم الذين يتمسكون بحرفيةِ
النصّ ، دون النظر إلى ما بين سطوره ،
ولا الاهتداء بفلسفته السامية الشاملة . . .
فإذا بالجمود والركود يسربلان المسيرة
ويعيقان الاجتهاد ويغلان رأى الصالح
المفيد ، الذى لا يخرج عن مفهوم جوهرِ
الدين ، بما يصلح حال المسلمين ويوجد
حلولاً ميسرة لما يعرض لحيواتهم من
ملايسات ومشكلات ؛ فالدين يُسر (ولن
يشاد الدين أحد إلا غلبه) كما قال
المصطفى ﷺ .

وقد شرع القرآن والسنة للمسلمين
مالو ساروا عليه لم يضلوا ولم يهنوا وهم
الأعلون .

وقد كان الرسول ﷺ في حياته
النبراس القوي ، يضىء ظلام الوجود ،
ويبدد غيوم الفرقة والشك والانحراف
و الجحود ، وهو يستمدُّ تعاليمه من

السماء في كتاب منزل منها . . . وقد رزقه
الله من كمال الخلق وبلاغه القول وثاقبِ
البصيرة وقوة الشخصية والخبرة. بالرجال
والحضور المضىء مالا مزيد عليه ، وقرن
الله اسمه بأسم عبده ورسوله محمد ، إذ
قال جل شأنه : (وَكَوْنَهُمْ إِذْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ
لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ، فَلَا
وَرَبَّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ
بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وقال تعالى :
(من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى
فما أرسلناك عليهم حفيظاً) .

وقد كان الرسول الهادى فى حكم
الحاكم العدل للأمة الإسلامية فى عصره
كما كان مدبراً أمورها وباعث عزتها
ومجدها وقوتها ، ثم توالى على المسلمين
من بعده خلفاء عظام أقاموا منارات العدل
والمساواة وآخوا بين الناس ، وفى الأثر :
(الخلافة بعدى ثلاثون سنة) وهى ما
احتسبه الناس لخلافة أبى بكر الصديق ،

وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان
وعلى بن أبي طالب ، والحسن بن علي
.. واختلف المسلمون في عهد عثمان
وذو قرن الفتنة حُسم الأمر - فيما بعد
لمعاوية بن أبي سفيان ، داهيه الرأي ،
فجعل من الخلافة ملكاً ، وحمل الناس
على البيعة لابنه يزيد بالملك من بعده
فأصبح ملكاً عضوياً متحدياً كبار
الصحابة ورجال الرأي والدين .. وتوالى
على حكم المسلمين خلفاء من بني أمية
حتى أنهار حكمهم ، وتلث عروشهم فئة
الحاكمين من بني العباس ، ثم استبدت
كثير من الفتن بمسيرة الإسلام فيما تلا
ذلك .

والإسلام كدين سماوي عظيم ،
لا يحجر على الرأي ، ولا يلغى الاجتهاد .
وقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي
وغيرهم من حديث الحارس بن عمرو ..
أبن أخي المغيرة بن شعبة قال : حدثنا
ناس من أصحاب معاذ ، عن معاذ قال : لما
بعثه النبي ﷺ إلى اليمن قال : كيف
تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ فقال أقضي

بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد في كتاب
الله ؟ قال : فبُسنة رسول الله ، قال فإن
لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب
الله ، قال : أجتهد رأيي ولا آلو : قال
فضرب رسول الله ﷺ وسلم صدرى
وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول
الله لما يرضاه رسول الله .

إن تنقية الدين من الشوائب وتطهيره
من البدع والخرافات أمورٌ واجبة محتمة ،
وفي الوقت ذاته ، فإن الاهتداء بتعاليمه
ومناهجه ، والسير على هواه ، والنظر في
شئون المسلمين على ضوء تشريعاته ؛ كلُّ
أولئك كافلٌ لخير البشرية ، ورفع القيم
الإنسانية والإسلام لم يأت من فراغ ، وإنما
هو (وملة أبيكم إبراهيم ، هو سَمَاكُمْ
المسلمين من قبل وفي هذا ليكون
الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على
الناس) .

وورد في القرآن الكريم : (ما يقالُ
لك إلا ما قد قيلَ للرسلِ من قبلك إنَّ
ربَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ) .

وورد فيه: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ
الرُّسُلِ ، وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي ، وَلَا بِكُمْ ،
إِنْ أَتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
مبينٌ) .

وقد أتى الدين الإسلامي بمبادئٍ
عليها كثيرةٌ . . . ومن أهمها حقوق الملكية
الفردية ، كما أتى ببشائر البعث والنشور
. . . وإن الحياة الدنيا ما هي إلا متاعٌ قليل
وإن الإنسان إذا حُرِمَ من مسراته الوقتية
فيها ، فإنه سيحظى بمسراتٍ أعظم وأوفرَ
وهي مسراتٌ أبدية خالدة . . . وأنه إذا ظلم
في دار الفناء فإنه سيلقى النصفَةَ في دار
البقاء ، ويُؤخذُ له حَقُّه عُنُوةً من ظلمه ،
وَحَثَّ الإسلام على العمل والاستغراق في
أداء الواجب وبشَّرَ بأنه سيعوّضُ عن كل ما
يؤلمُ ويضير في هذه الدنيا ، مهما قلَّ
وضوؤ (بأن العبدَ ليؤجرَ على الشوكة
يُشَاكُهَا) .

وأتى الإسلام بالسَّماحةِ والعدل (لا
إكراهَ في الدينِ قد تبينَ الرُّشدُ مِنَ الغيِّ
فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ
آسَمَكَ بالعُرُوةِ الوثقى ، لا انفصامَ لها ،
والله سميعٌ عليم) .

وأخيراً ، فإن إجابات الإسلام على
تساؤلات العصر ، ومواصفاته وتحدياته ،
هي إجاباتٌ سليمة مقنعة ؛ كما أن حجته
على المشككين والمرتابين والمتردددين
والمنافيين ظاهرةٌ قويةٌ ، وإن سماحته ليس
لها من حدود ، فعسى أن يعود الهاربُ
إلى الحظيرة ، والشاردُ إلى المسيرة ،
والشاذُّ إلى الجماعة ، والشاكُّ إلى اليقين ،
والعاصي إلى الطاعة ، والضالُّ إلى
الصراط المستقيم .

وعسى الله أن يأتي بالفتح ، أو أمرٍ
من عنده ، فهو نعم المولى ونعم النصير .
حسن عبد الله القرشي

عضو المجمع المراسل من السعودية

* * *